يقــول أحد الصحابة: «نزل رســول الله ﷺ بالناس عام تبــوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستســقى الناس من الآبار التي كان يشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبــوا القدور باللحم»[1] و«لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشــربوا من بئرها، ولا يســتقوا منها، فقالوا: قد عجنا منها واســتقينا. فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا ذلك الماء»[2]

و«قال: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم ما أصابهم، ثــم تقنع بردائه وهو على الرحل»[3] «ثم زجر فأســرع حتى خلفها»[4] فنهض الصحابة «فأهراقــوا القدور وعلفوا العجين الإبل، ثــم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشــرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا. قال: إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم»[5] «وأمرهم أن يســتقوا من البئر التي كانت تردها الناقة»[6] فامتثلوا أمر نبيهم عليه الســلام، ثم قام النبي ﷺ في أصحابه خطيباً وحدثهم عن قوم صالح، وعن مصير الرجل الشهير أبي رغال. فما هي..

خطبة النبي ﷺ

يقول جابر رضي الله عنه: «لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: لا تسألوا الآيات، وقد ســألها قوم صالح، فكانت ترد من هذا الفج وتصدر مــن هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم، فعقروها، فكانت تشرب ماءهم يوم، ويشربون لبنها يوما، فعقروها، فأخذتهم صيحة أهمد الله عز وجل من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله عز وجل.

قيــل: من هو يا رســول الله؟ قال: هو أبو رغال، فلما خــرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»[7]

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري وأحمد واللفظ له وســند أحمــد صحيح ٢-١١٧ حدثنا عبد الصمد حدثنا صخر يعني بن جويرية عن نافع عن بن عمر قال وصخر ثقة.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٢٣٦.

(٣) صحيح البخاري ٣-١٢٣٧.

(٤) صحيح مسلم ٤-٢٢٨٦.

(٥) هو جزء من حديث أحمد السابق أحمد ٢-١١٧.

(٦) صحيح البخاري ٣-١٢٣٧.

(٧) سنده صحيح على شرط مسلم رواه أحمد ٣-٢٩٦ ثنا عبد الرزاق ثنا معمر عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الزبير عن جابر وأبو الزبير مدلس لكنه صرح بالسماع عند الفاكهي في أخبار مكة ٢-٢٥١.

ويبدو أن غزوة تبوك ستكون حافلة بالدروس، لكن هل ستكون حافلة بالدماء؟ غادر النبي ﷺ وجيشه أرض ثمود:

نحو وادي القرى

وهي مدينة بين تبوك والمدينة، وفيها مر النبي ﷺ بحديقة امرأة مسلمة، فكان هذا الحوار الذي يذكره أحد الصحابة فيقول «خرجنا مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك، فأتينا وادي القرى على حديقة لامرأة فقال رسول الله ﷺ: اخرصوها. فخرصناها وخرصها رسول الله ﷺ عشرة (أوسق). وقال: أحصيها حتى نرجع إليك إن شاء الله، وانطلقنا حتى قدمنا تبوك»[1]

والخرص هو تقدير ما على النخل من رطب.. تمهيداً لأخذ زكاته، وكان تقدير النبي ﷺ لرطب المرأة أنه يبلغ عشرة (أوسق) أي ستمائة صاع، لأن الوسق يساوي ستين صاعاً.

خرص النبي ﷺ الرطب ثم غادر وادي القرى متوجهاً نحو تبوك في:

طريق مفروش بالدروس والمعجزات

فقد كان عليه السلام يجمع في طريقه ذلك ويقصر كعادته في أسفاره: يقول أنس رضي الله عنه «كان رسول الله ﷺ إذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو ثلاثة فراسخ صلى ركعتين»[2]

أما ما يضعه المصلي أمامه كي لا يقطع أحد صلاته فـ «سئل في غزوة تبوك عن سترة المصلي؟ فقال: كمؤخرة الرحل»[3] أي العود الموجود في آخر المقعد الموجود في رحل البعير.

ويقول معاذ رضي الله عنه: «خرجنا مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك، فكان يجمع الصلاة فصلى الظهر والعصر جميعاً، والمغرب والعشاء جميعاً، حتى إذا كان

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٧٨٥.

(٢) صحيح مسلم ١-٤٨١ وبعد كلمة أميال قال الراوي: شعبة الشاك أي أن الإمام شعبة شك.

(٣) صحيح مسلم ١-٣٥٩.

يومـاً أخر الصلاة، ثـم خرج فصلى الظهر والعصر جميعاً، ثم دخل، ثم خرج بعد ذلك فصلى المغرب والعشاء جميعاً، ثم قال: إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحي النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي.

فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء فسألهما رسول الله ﷺ: هل مسستما من مائها شيئاً؟

قالا: نعم. فسبهما النبي ﷺ وقال لهما ما شاء الله أن يقول.

ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً، حتى اجتمع في شيء وغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه، ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء منهمر أو غزير حتى استسقى الناس، ثم قال: يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد ملئ جناناً»[1].

نبـي تقله المعجزات وتظله، ويلهج بهـا لأجيال لم تخلق أصلاب آبائها بعد، وحين انتهى عليه السلام إلى تبوك توقف الجيش فلم يجد أحداً..

أيـن الروم..؟ أين جيشـهم الـذي لا يقهر؟!! أين دولتهم التـي أولها في أقاصي أوروبا، وآخرها ليس في تبوك..؟

لا أحد على هذه الأرض سوى النبي وأصحابه والمعجزات!!

نزل النبي ﷺ وأقيم معسكر كبير جداً، وفي أحد مجالس النبي ﷺ بين أصحابه افتقد صاحبه كعب بن مالك، وسـأل عنه؟ فكانت الإجابة نقداً لاذعاً لكعب.. تفوه به أحد الجالسين.

يروي كعب مأسـاته وأحزانه فيقول: «ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب؟ فقال رجل من بني سـلمة: يا رسـول الله حبسـه برداه ونظره في عطفيه. فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول الله ﷺ»[2]

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٧٨٤ وقد تحققت المعجزة الأخرى اليوم فتبوك اليوم من أكبر المناطق الزراعية.
(٢) صحيح البخاري ٤-١٦٠٤.

سكت لأن كعباً كان من أهل العقبة وأحد والخندق، وباقي المشاهد والغزوات، أما ما فعله معاذ ابن جبل رضي الله عنه من دفاع عن عرض أخيه الغائب، فهو استيعاب معاذ لمعنى الأخوة، وامتثال لقوله عليه السلام: «من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة»[1] فالغائب له أعذاره ومبررات غيابه، ولا مجال للقذف والتكهنات في حياة المسلم النقي، فمن أجمل ما يزين به المرء حياته وقلبه حسن الظن، وسلامة الصدر، كما يزين النبي ﷺ وأصحابه اليوم أرض تبوك.

وبينما كان الصحابة حول نبيهم في مجلسهم الودي هذا.. لاح لهم بين السراب بياض يموج خلاله، بعد أن «رأى رجلاً مبيضاً يزول به السراب، فقال رسول الله ﷺ: كن أبا خيثمة.

فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون»[2] «فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله هذا أبو خيثمة. فلما أناخ، سلم على رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: أولى لك أبا خيثمة.

فقص عليه خبره، فدعا له رسول الله ﷺ بخير، وقال له خيراً»[3]

وبعد أن مرت أيام على هذا المعسكر، وتبين أن الروم قد أصابهم الخوف والرعب من هذا الجيش المؤمن، الذي يعاني الآن من:

مجاعة على أرض تبوك

«لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة. قالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادهنا؟

فقال رسول الله ﷺ: افعلوا. فجاء عمر فقال: يا رسول الله، إن فعلت قَلَّ الظَّهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة، لعل الله أن يجعل في ذلك.

---

(١) سنن الترمذي ٤-٣٢٧ وهو صحيح انظر صحيح السنن للإمام الألباني رحمه الله.

(٢) صحيح مسلم ٤-٢١٢٢.

(٣) سنده قوي وهو جزء من حديث ابن إسحاق السابق: حدثني محمد بن طلحة بن يزيد بن ركانة عن إبراهيم ابن سعد بن أبي وقاص أنه سمع أباه. وله شاهد عند الطبراني ٦-٣١.

فقال رسول الله ﷺ: نعم. فدعا بنطع فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم... فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، ويجيء الآخر بكف تمر، ويجيء الآخر بكسرة، حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير. فدعا رسول الله ﷺ عليه بالبركة، ثم قال: خذوا في أوعيتكم. فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملؤوه. فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة...

فقال رسول الله ﷺ: أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة»[1]

معجزات كثيرة طمأنت قلوب المؤلفة قلوبهم، وقوت إيمان مسلمي الفتح ومسلمي حنين وغيرهم.. معجزات ليست غريبة على عمر الذي طلبها من رسول الله ﷺ أن يدعوا الله لتحدث.

وبعد فماذا سيفعل عليه السلام ولا حرب ولا روم هنا، ولا فائدة من البقاء في مكان لا يرون فيه سوى الجوع والعطش؟

لقد قرر النبي ﷺ أن يبقى أياماً.. جاعلاً أرض تبوك مركزاً لنشاطات عسكرية وسياسية مختلفة، وأول المستهدفين بتلك النشاطات هم من جاء من أجلهم: الروم.. لقد قرر ﷺ

إرسال رسالة إلى قيصر الروم

«قال رسول الله ﷺ: من ينطلق بصحيفتي هذه إلى قيصر وله الجنة؟ فقال رجل من القوم: وإن لم أقتل؟ قال: وإن لم تقتل.

فانطلق الرجل به فوافق قيصر وهو يأتي بيت المقدس، قد جعل له بساط لا يمشي عليه غيره، فرمى بالكتاب على البساط وتنحى، فلما انتهى قيصر إلى الكتاب أخذه، ثم دعا رأس الجاثليق[2] فأقرأه.

---

(١) صحيح مسلم ١-٥٦.

(٢) ربما تعني هذه الكلمة: الكاثوليك، وهي طائفة نصرانية دولتها الفاتيكان في وسط روما.

فقال: ما علمي في هذا الكتاب إلا كعلمك.

فنـــادى قيصر: مَنْ صاحب الكتاب فهو آمن؟ فجاء الرجل. فقال (قيصر): إذا أنا قدمت فأتني.

فلمـــا قدم أتـــاه، فأمر قيصر بأبواب قصره فغلقت، ثم أمـــر منادياً ينادي: ألا إن قيصـــر قد اتبع محمداً ﷺ وترك النصرانية. فأقبل جنده وقد تســـلحوا حتى أطافوا بقصره فقال لرسول رسول الله ﷺ: قد ترى، إني خائف على مملكتي، ثم أمر منادياً، فنـــادى: ألا إن قيصـــر قد رضي عنكم، وإنما خبركم لينظـــر كيف صبركم على دينكم فارجعوا. فانصرفوا، وكتب قيصر إلى رســـول الله ﷺ: إني مسلم وبعث إليه بدنانير. فقال رسول الله ﷺ: حين قرأ الكتاب كذب عدو الله ليس بمسلم وهو على النصرانية، وقسم الدنانير»[1]

كانت هذه الإجابة المرتبكة تدل على أن الروم وعلى رأسهم قيصر.. بدأوا بمطالعة كتبهم المقدســـة ومراجعة نبواتها، حيث ظهر خوفهم الشديد من هذا النبي التي تشير النبـــوات في الكتاب المقدس إلى صدقه وصدق ما جاء به. لكنها الســـلطة التي تكمم الأفواه، وتغلق القلوب، وتحرم صاحبها من اتباع الحق. ففي داخل بئر بدر يتعفن أحد الأدلة، وعلى أرض بني النضير وقينقاع وخيبر.. أدلة أخرى من الحســـد والعناد لهذا النبي، وكأن كونه عربي النســـب سبة على بني إسرائيل.. الذين أهانوا النبوة والأنبياء بشكل بشع.

كان ارتباك قيصر وخوفه دافعاً لملك مدينة تدعى (أيلة) على ساحل البحر الأحمر أن يأتـــي بنفســـه.. يحمل هداياه، ويقـــدم الولاء للنبي ﷺ «جاءه ملـــك (أيلة) وأهدى لرسول الله ﷺ بغلة بيضاء.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن حبان ١٠-٣٥٧ أخبرنا محمد بن إسحاق بن إبراهيم حدثنا محمد بن عبد الرحيم صاعقة حدثنا علي بن بحر حدثنا مروان بن معاوية الفزاري حدثنا حميد عن أنس. حميد الطويل تابعي ثقة ســـمع أنس وتلميذه الفزاري ثقة حافظ. التقريـــب ٥٢٦ وتلميذه ثقة فاضل. التقريب ٣٩٨. وصاعقة ثقة حافظ التقريب ٤٩٣ وابن إسحاق قال عنه الخطيب في تاريخ بغداد ١-٢٤٨: كان من المكثرين الثقات الصادقين الأثبات عَنِيَ بالحديث وصنف كتباً كثيرة وهي معروفة مشهورة.

فكســاه رسول الله ﷺ برداً، وكتب له رســول الله ﷺ[1] «كتب له ببحرهم»[2] أي أبقاه النبي ﷺ ملكاً على أيلة، ثم بعث بسرية إلى مكان آخر هو:

دومة الجندل

«بعث إلى أكيدر صاحب دومة بعثاً»[3] وأوكل قيادة هذه السرية إلى الفارس والقائد الــذي لا يهزم (خالد بــن الوليد) رضي الله عنه، وريثما يعود خالد من مهمته.. دعونا نتجول داخل هذا المعسكر، الذي حوله النبي ﷺ إلى مدرسة يتعلم منها الجميع.. حيث «أقام رســول الله ﷺ بتبوك عشرين يوماً»[4]، وفي إحدى تلك الليالي وبعد أن فرغ من صلاته قام:

النبي ﷺ يبشر أصحابه بخمس

خمــس هبات من اللــه لنبيه ولهذه الأمة.. تفيض رحمة ورأفــة بهم، وعزاءً لهذا الجيش الذي عانى الكثير، ولم يسعد بلقاء العدو وقطف الشهادة.

يقــول أحد المشــاركين في هذه الغزوة وهو (عبد الله بــن عمرو بن العاص): «إن رســول الله ﷺ عام غزوة تبوك قام من الليل يصلي، فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرســونه، حتــى إذا صلى وانصرف إليهــم فقال لهم: لقد أعطيت الليلة خمســاً ما أعطيهن أحد قبلي:

أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة، وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه.

ونصرت على العدو بالرعب، ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر لملئ منه رعباً.

وأحلت لي الغنائم آكلها، وكان من قبلي يعظمون أكلها كانوا يحرقونها..

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٢-٥٣٩ وابن حبان ١٠-٣٥٥ واللفظ الأول له.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٢-٥٣٩ وابن حبان ١٠-٣٥٥ واللفظ الأول له.

(٣) ســنده حســن رواه النسائي ٨-١٩٩ وغيره عن محمد بن عمرو عن واقد بن عمرو بن سعد بن معاذ سمع أنس. واقد ثقة وتلميذه حسن الحديث من رجالهما التقريب ٥٧٩ و٤٩٩

(٤) ســنده صحيح رواه أحمــد ٣-٢٩٥ ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن يحيى بــن أبي كثير عن محمد ابن عبد الرحمن بن ثوبان عن جابر. يحيى وشيخه ثقتان التقريب والبقية أئمة.

وجعلت لي الأرض مساجد وطهوراً، أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت، وكان من قبلي يعظمون ذلك إنما كانوا يصلون في كنائسهم وبيعهم.

والخامسة هي ما هي قيل لي: سل فإن كل نبي قد سأل. فأخرت مسألتي إلى يوم القيامة، فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله»[1] ويقصد بها شفاعته لأمته يوم القيامة حيث يقول «ﷺ لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً»[2]

وقد أعطى الله للنبي ﷺ أربع شفاعات يوم القيامة:

الأولى: هي الكبرى، وهي التي يقبلها ﷺ تلبية لنداء البشر جميعاً، بعدما يعتذر الأنبياء للناس عن مخاطبة الجبار يوم القيامة. يقول ﷺ: «إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض فيأتون آدم، فيقولون له: اشفع لذريتك فيقول: لست لها، ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله.

فيأتون إبراهيم فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسى عليه السلام فإنه كليم الله.

فيؤتى موسى فيقول: لست لها، ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته.

فيؤتى عيسى فيقول: لست لها ولكن عليكم بمحمد ﷺ

فأوتى فأقول: أنا لها»[3].

الثانية: شفاعته لأهل الكبائر من أمته بعدما يقول ﷺ: «أنا لها، فأنطلق فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، فأقوم بين يديه فأحمده بمحامد لا أقدر عليه الآن يلهمنيه الله، ثم أَخِرُّ له ساجداً فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأقول: رب أمتي.. أمتي..

---

(١) سنده قوي رواه أحمد ٢-٢٢٢ وغيره من طرق عن يزيد بن الهاد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. يزيد ثقة مكثر: التقريب ٦٠٢ والباقي إسناد حسن معروف.

(٢) صحيح مسلم ١-١٨٢.

(٣) صحيح مسلم ١-١٨٩.

فيقال: انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها.

فأنطلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأقول: أمتي.. أمتي..

فيقال لي: انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها.

فأنطلق فأفعل، ثم أعود إلى ربي فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً. فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأقول: يا رب أمتي.. أمتي..

فيقال لي: انطلق، فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار فأنطلق فأفعل»[1]

الثالثة: شفاعته لإخراج أناس من أهل النار، من الذين ارتكبوا ذنوباً كبيرة وكثيرة، لكنها لم تصل إلى حد الشرك الأكبر، وهي الشفاعة التي يخصه بها الله سبحانه وتعالى

يقول ﷺ: «ثم أرجع إلى ربي في الرابعة، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع فأقول: يا رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله. قال: ليس ذاك لك، أو قال ليس ذاك إليك، ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وكبريائي لأخرجن من قال لا إله إلا الله»[2]

الرابعة: شفاعته لعمه أبي طالب، وذلك أن يخفف عنه من العذاب، فيوضع على جمرتين على شكل نعلين من النار.. يغلي منهما دماغه. فقد قال «أبو سعيد الخدري: إن رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب؟ فقال: لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه، يغلي منه دماغه»[3]

كان الصحابة ينصتون إلى تلك الهبات الإلهية ويرجون الله شفاعة نبيه ﷺ، وكان النبي ﷺ يواصل تعليمه وتثقيفه لأتباعه في أي مكان وأي زمان.. هاهو داخل خيمته

---

(١) صحيح مسلم ١-١٨٣.

(٢) صحيح مسلم ١-١٨٣.

(٣) صحيح مسلم ١-١٩٥.

الصغيـــرة التي تقصدها خطوات الصحابي عوف بـــن مالك، وبعدما وصل قال رضي الله عنه: «أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك [في آخر السحر وهو في فسطاطه فسلمت عليه وقلت: أأدخل يا رسول الله؟ فقال: ادخل.. فقلت: كلي؟ فقال: كلك]، وهو في قبة من أدم فقال: عدد ستاً بين يدي الساعة:

موتى.

ثم فتح بيت المقدس.

ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم.

ثم استفاضة المال حتى يعطي الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً.

ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته.

ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً»[1] وهذا الحديث من معجزاته عليه السلام، وأما دروسه لأمته في هذه الغزوة فلم تنته.. ها هو يواصل تعليم أصحابه أمراً يتعلق بالنظافة والصلاة يعلمهم:

دروسا في المسح على مقدمة الرأس والعمامة والخفين

وكان رفيقـــه في تلك الليلة صاحبه المغيرة بن شـــعبة رضي الله عنه الذي يقول: «أنـــه غزا مع رســـول الله ﷺ تبـــوك»[2] «فقال: يا مغيرة خـــذ الإداوة[3]، فأخذتها، ثم خرجت معه فانطلق رسول الله ﷺ حتى توارى عني، فقضى حاجته ثم جاء وعليه جبة شامية ضيقة الكمين، فذهب يخرج يده من كمها فضاقت عليه، فأخرج يده من أسفلها فصببت عليه فتوضأ وضوءه للصلاة»[4]

وكان ذلك «قبل صلاة الفجر، فلما رجع رسول الله ﷺ إليَّ أخذت أهريق على يديه من الإداوة، وغســـل يديه ثلاث مرات، ثم غسل وجهه، ثم ذهب يخرج جبته عن ذراعيه فضاق

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١٥٩ والزيادة صحيحة وهي عند الحاكم ٣-٦٣٠ وغيره.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ١-٣١٧.

(٣) إناء يوضع فيه الماء.

(٤) حديث صحيح رواه مسلم ١-٢٢٩.

كما جبته، فأدخل يديه في الجبة حتى أخرج ذراعيه من أسفل الجبة، وغسل ذراعيه إلى المرفقين»[١] «فمسح بناصيته[٢] وعلى العمامة»[٣] «مقدم رأسه وعلى عمامته»[٤]

عندها أراد المغيرة رضي الله عنه أن يخدم النبي ﷺ بنزع الخفين من قدميه الشريفتين، لكن ذلك لم يحدث. يقول المغيرة: «فأهويت لأنزع خفيه فقال دعهما فإني أدخلتهما طاهرتين فمسح عليهما»[٥] أي أن النبي ﷺ لبس الخف وهو متوضئ وإلا لما مسح على الخف، كما بين عليه السلام لصحابته مدة المسح على الخفين التي تبدأ من أول مسحة. فيقول عوف بن مالك الذي دخل على نبيه في قبته قبل قليل: « إن رسول الله ﷺ أمر بالمسح على الخفين في غزوة تبوك ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر، ويوم وليلة للمقيم»[٦]

درس في جواز لبس الشعوب، حيث لبس جبة شامية يصنعها النصارى، وهي أشبه بالجاكيت، وليس في ملابس الشعوب تشبه بالكفار، بل التشبه يكون عندما يلبس المسلم ملابس القساوسة والحاخامات والرهبان والكهنة، أي ملابس رجال الدين.

ولما فرغ النبي ﷺ من وضوءه وطهارته توجه مع صاحبه المغيرة لأداء صلاة الفجر فكان في ذهابهما:

درس آخر في الصلاة

يقول «المغيرة: فأقبلت معه حتى نجد الناس قد قدموا عبد الرحمن بن عوف، فصلى لهم، فأدرك رسول الله ﷺ إحدى الركعتين فصلى مع الناس الركعة الآخرة، فلما سلم عبد الرحمن بن عوف قام رسول الله ﷺ يتم صلاته.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ١-٣١٧.
(٢) مقدمة الرأس وبداية الشعر.
(٣) صحيح مسلم ١-٢٣١.
(٤) صحيح مسلم ١-٢٣١.
(٥) صحيح البخاري ١-٨٥.
(٦) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة ١-١٦١ حدثنا هشيم بن بشير قال أخبرنا داود بن عمر عن بسر بن عبد الله الحضرمي عن أبي إدريس الخولاني قال حدثنا عوف بن مالك الأشجعي: هشيم لم يدلس والبقية ثقات وهو متصل.

فأفزع ذلك المسلمين. فأكثروا التسبيح، فلما قضى النبي ﷺ صلاته أقبل عليهم ثم قال: أحسنتم. أو قال: قد أصبتم. يغبطهم أن صلوا الصلاة لوقتها»[1].

لم يستفد الصحابة من دروس العبادة فقط كان هناك:

درس في الأحكام الجنائية

فقد حدث بين بعض الرجال ما يحدث بين البشر من نزاع وسوء تفاهم.. قد يصل إلى الاشتباك بالأيدي أحياناً، وقد وصلت الأمور هذه المرة إلى الاشتباك، فتضرر أحد الطرفين، فذهب مشتكياً للنبي ﷺ الذي كان يؤدي دور القائد والأخ والقاضي والمعلم، وقبل ذلك النبي.

يروي لنا ما حدث صحابي كان هناك، وكان له علاقة بما حدث.. اسمه (يعلى بن منية) فيقول: «غزوت مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك، فحملت على بكر فهو أوثق أعمالي في نفسي، فاستأجرت أجيراً فقاتل رجلاً، فعض أحدهما الآخر، فانتزع يده من فيه ونزع ثنيته، فأتى النبي ﷺ فأهدرها[2] فقال: أيدفع يده إليك فتقضمها كما يقضم الفحل»[3] فتعلم الصحابة أن خسائر المعتدي لا تعوض، فهو السبب فيها لا خصمه، وإذا كان أحد الصحابة قد خسر أحد أسنانه، فإن أحدهم كاد أن يفقد حياته عندما حذر عليه السلام أصحابه:

أمراً مرعباً سيحدث على أرض تبوك

ومعجزة أخرى ستحدث على أرض المعجزات - تبوك، معجزة خارقة لا تحدث ولا يعلمها إلا نبي.

يقول أحد الذين شاهدوا تلك الحادثة: «قدمنا تبوك فقال رسول الله ﷺ: ستهب عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقم فيها أحد منكم، فمن كان له بعير فليشد عقاله، فهبت ريح شديدة، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبلي طيء»[4]

---

(١) صحيح مسلم ١-٣١٧.
(٢) أي لم يعوضه.
(٣) صحيح البخاري ٣-١٠٨٦.
(٤) صحيح مسلم ٤-١٧٨٥.

فأفزع ذلك المسلمين. فأكثروا التسبيح، فلما قضى النبي ﷺ صلاته أقبل عليهم ثم قال: أحسنتم. أو قال: قد أصبتم. يغبطهم أن صلوا الصلاة لوقتها»[1].

لم يستفد الصحابة من دروس العبادة فقط كان هناك:

درس في الأحكام الجنائية

فقد حدث بين بعض الرجال ما يحدث بين البشر من نزاع وسوء تفاهم.. قد يصل إلى الاشتباك بالأيدي أحياناً، وقد وصلت الأمور هذه المرة إلى الاشتباك، فتضرر أحد الطرفين، فذهب مشتكياً للنبي ﷺ الذي كان يؤدي دور القائد والأخ والقاضي والمعلم، وقبل ذلك النبي.

يروي لنا ما حدث صحابي كان هناك، وكان له علاقة بما حدث.. اسمه (يعلى بن منية) فيقول: «غزوت مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك، فحملت على بكر فهو أوثق أعمالي في نفسي، فاستأجرت أجيراً فقاتل رجلاً، فعض أحدهما الآخر، فانتزع يده من فيه ونزع ثنيته، فأتى النبي ﷺ فأهدرها[2] فقال: أيدفع يده إليك فتقضمها كما يقضم الفحل»[3] فتعلم الصحابة أن خسائر المعتدي لا تعوض، فهو السبب فيها لا خصمه، وإذا كان أحد الصحابة قد خسر أحد أسنانه، فإن أحدهم كاد أن يفقد حياته عندما حذر عليه السلام أصحابه:

أمراً مرعباً سيحدث على أرض تبوك

ومعجزة أخرى ستحدث على أرض المعجزات - تبوك، معجزة خارقة لا تحدث ولا يعلمها إلا نبي.

يقول أحد الذين شاهدوا تلك الحادثة: «قدمنا تبوك فقال رسول الله ﷺ: ستهب عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقم فيها أحد منكم، فمن كان له بعير فليشد عقاله، فهبت ريح شديدة، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبلي طيء»[4]

---

(١) صحيح مسلم ١-٣١٧.
(٢) أي لم يعوضه.
(٣) صحيح البخاري ٣-١٠٨٦.
(٤) صحيح مسلم ٤-١٧٨٥.

أنها لم تكن ريحاً عادية، وإلا لم حذر عليه السلام صحابته منها فطلب منهم أن يربطوا رواحلهم بشدة. أما كيف عرف هذا الصحابي بمكان أخيه، فهذا ما سنعرفه بعد العودة للمدينة، وهي عودة يبدو أنها قريبة. فبعد أن «أقام رسول الله ﷺ بتبوك عشرين يوماً»[1] قال أبو هريرة رضي الله عنه: « إن رسول الله ﷺ قام فينا يوم تبوك فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: إن الله أذن لكم بهذا المسير، وقد أذن لكم بالرجوع، [والذي نفس محمد بيده لولا أنه ليس عندي سعة فأعطيكم، ولا تطيب أنفسكم أن تقعدوا خلفي ما قعدت خلف سرية ولا بعث من المسلمين، فلوددت أني أقتل في سبيل الله، ثم أحيى ثم أقتل، ثم أحيى بعدها مراراً، جرح الرجل جرحا في سبيل الله والله أعلم بمن يجرح في سبيله يأتي يوم القيامة كلون الدم وريح المسك]»[2]

فتأهب الجميع للعودة إلى المدينة، ثم تحركوا، وبعد أن انطلق الجيش وخلال الطريق وجد الصحابي (معاذ بن جبل) نفسه بقرب النبي ﷺ، فوجدها فرصة لا يمكن تفويتها، لذلك قدم استفساراً يلح على مشاعره بشدة، فقال: «أقبلنا مع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك فلما رأيته»[3] «وقد أصاب الحر، فتفرق القوم حتى نظرت فإذا رسول الله ﷺ أقربهم مني فدنوت منه، فقلت: يا رسول الله أنبئني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار.

قال: لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. قال: وإن شئت أنبأتك بأبواب الجنة. قلت: أجل يا رسول الله.

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٣-٢٩٥ ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن يحيى بن أبي كثير عن محمد ابن عبد الرحمن بن ثوبان عن جابر. يحيى وشيخه ثقتان التقريب والبقية أئمة وقد مر معنا.

(٢) سنده حسن رواه ابن أبي عاصم في السنة ١-١٧٧ حدثنا ابن مصفى حدثنا بقية بن الوليد ثنا الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني عن أبي مريم عن أبي هريرة.. قال الإمام الألباني: إسناده حسن وفي ابن مصفى كلام يسير وبقية من جهة تدليسه ولكنه صرح بالتحديث وأبو مريم هو الأنصاري الشامي وهو ثقة. وهو كما قال رحمه الله.. والزيادة عند الطبراني في مسند الشاميين ٢-٣٣ وهي صحيحة لأنها زيادة الثقة يزيد بن عبد ربه الجرجسي وقد تابع محمد بن مصفى في روايته.

(٣) حديث حسن رواه ابن أبي شيبة ٦-١٥٨ أحمد ٥-٢٣٧ عن شعبة عن الحكم سمعت عروة بن النزال يحدث عن معاذ بن جبل وسنده فيه ضعف من أجل الراوي عن معاذ لكن يشهد له ما بعده ففيه متابعة قوية له.

قـال: الصوم جنة، والصدقة تكفر الخطيئـة، وقيام الرجل في جوف الليل يبتغي وجه الله، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

قال: وإن شئت أنبأتك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه. قلت: أجل يا رسول الله.

قال: أما رأس الأمر فالإسـلام، وأما عموده فالصلاة، وأما ذروة سنامه فالجهاد في سبيل الله. وإن شئت أنبأتك بملاك ذلك كله. فسكت، فإذا راكبان يوضعان[1] قبلنا، فخشيت أن يشغلاه عن حاجتي، فقلت: ما هو يا رسول الله؟

فأهوى بإصبعه إلى فيه. فقلت: يا رسول الله، وإنا لنؤاخذ بما نقول بألسنتنا؟

قـال: ثكلتك أمك ابن جبـل، هل يُكبُّ الناس على مناخرهم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم»[2]

ما أروع الإسـلام فقد تحولت حياة هؤلاء العرب الأجـلاف بهذا النبي إلى حياة أخرى.. نظافة وعبادة نقية وعلم وثقافة، بل أصبح العلم والثقافة في مقدمة اهتماماتهم، وأصبـح رضى الله هو هدف الحصول على هذا العلم، لو وضعنا آلة تصوير لتسـجل لنا كيف كانت هذه الجزيرة قبل الإسـلام وبعده لما صدق أحد ما جرى.. إنها معجزة خارقـة، وكأن أمة جديدة متحضرة حلت مكان تلـك الأمة الوثنية.. أمة جديدة تعتبر العلم عبادة، والنظافة عبادة، والعدل والصدق والأمانة والإحسـان والمواسـاة وكفالة اليتيم والإيثار وسـائر الحركات الجميلة مهرجاناً من العبادات.. حتى حركة اللسـان وسكونه.. حوَّلَها الإسلام إلى عبادة.

كان ﷺ يحدث أصحابه عن اللسـان وخطورته، وكأنه يستشعر تلك الأفاعي التي يخفيها المنافقون داخل أفواههم، والتي تتلمظ لنهش أعراض الصحابة وتشويه صورتهم، وقد حدث ذلك في أحد مجالس تبوك التي شملت بعض المنافقين.. حيث قام هؤلاء:

---

(١) يسرعان نحونا.

(٢) سـنده قوي رواه الحاكم ٢-٤٤٧ من طريقين عن الأعمـش عن حبيب بن أبي ثابت والحكم بن عتيبة عن ميمـون بن أبي شـبيب عن معاذ: وميمون تابعي صدوق: التقريـب ٢-٢٩١ والحكم وحبيب تابعيان ثقتان وله شـاهد حسن الإسناد عند أحمد ٥-٢٣١ ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن معاذ بن جبل.

المنافقون يسخرون من النبي ﷺ وصحابته

فقد «قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء.

فقال رجل في المسجد: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ونزل القرآن فقال عبد الله بن عمر: أنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ، تنكبه الحجارة وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب. ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾»[1]

فالسخرية من الله أو رسوله ﷺ، أو القرآن والسنة لا تعني سوى الازدراء والاحتقار، ولا يمكن تغليفها بأي غلاف آخر يخفي حقيقة الكره والتبرم. وهو أسلوب منحط وسافل.. لا ينتهجه سوى الفاشلين العاجزين عن المنافسة من وضعاء البشر.

والمنافقون في كل زمان ومكان عنوان للفشل، وهم بدلا من أن يسخروا من القرآن والسنة مباشرة.. يلجأون إلى السخرية ممن يحملونهما منهجا وعقيدة وسلوكاً، لأنهم سيفضحون أنفسهم ويكشفونها لو تجرأو على النيل المباشر للدين..

لكن كما يقال القافلة تسير والكلاب تنبح، ولكن ثمن النباح هنا كان مريرا بعد أن أنزل الله تلك الآيات التي فضحت هؤلاء المعادين للنجاح والحقيقة فأصبحوا أعداء لكل شيء حتى أنفسهم.

سارت القافلة عائدة إلى المدينة حتى وصلوا إلى وادي القرى، وهناك مروا على تلك المرأة صاحبة النخل «فلما أتى وادي القرى قال ﷺ للمرأة: كم جاءت حديقتك؟

قالت: عشرة أوسق خرص رسول الله ﷺ. فقال النبي ﷺ: إني متعجل إلى المدينة فمن أراد منكم أن يتعجل معي فليتعجل»[2] لكن يبدو أن الظروف لم تكن تساعد على

---

(١) سنده صحيح رواه الطبري في ٢-٣٦٨ وابن كثير في تفسيره ٢-٣٦٨ حيث قال رحمه الله قال عبد الله بن وهب أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر فذكره إلى قوله تستهزئون وقد توبع ابن وهب تابعه الليث عن هشام بن سعد.

(٢) صحيح البخاري ٢-٥٣٩.

العجلة، فطريق العودة لـم يخل بعد من المنغصات.. التي يقذفها المنافقون الطافحون بالكراهية والحقد بعد تلك الفضيحة، وبعد هذه الغزوة التي تعتبر رصيداً من النجاح للدولة المسـلمة، رغم عدم وجود قتال فيها، إلا أنها كشـفت عن هيبة المسـلمين عند إمبراطورية الروم، وعن حقد المنافقين على هذه النجاحات التي تم تحقيقها في فترة قياسية من أعمار الأمم، وقد حدث بين أحد المهاجرين والأنصار خلاف صغير، انتهزه المنافقون، وحاولوا اسـتثماره لإشعال سعير الفتنة داخل هذا الجيش المسلح، عل هذه الأسلحة تجد أغماداً لها داخل أجساد المؤمنين وذلك بعدما تعالى:

صراخ الجاهلية داخل معسكر المؤمنين

وكانت بداية هذا النزاع مزاحاً ثقيلاً من أحد المهاجرين المرحين، حيث قام بضرب أخيه الأنصاري برجله أو بيده على مؤخرته، فلم يتحمل الأنصاري هذا المزاح الثقيل.

يقول جابر رضي الله عنه: «غزونا مع النبي ﷺ وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا، وكان من المهاجرين رجل لعاب، فكسـع أنصارياً، فغضب الأنصاري غضباً شـديداً حتى تداعوا، وقال الأنصاري: يا للأنصـار. وقال المهاجري: يا للمهاجرين»[1] ويضيف جابر أيضاً: «فخرج رسول الله ﷺ فقال: ما هذا.. دعوى أهل الجاهلية؟!!

قالوا: لا يا رسـول الله، إلا أن غلامين اقتتلا، فكسـع أحدهما الآخر. قال: فلا بـأس، ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلومـاً، إن كان ظالماً فلينهه، فإنه له نصر، وإن كان مظلوماً فلينصره»[2].

بهـذه العدالة والحكمـة تقتل الفتنة مهما كانت كبيرة، انصـر أخاك ظالماً بمنعه مـن الظلم، وانصـره مظلوماً بالدفاع عنه، لكن عبد الله بن أبي ابن سـلول لم تعجبه تلـك الحكمة، ولا تلـك العدالة، فقرر أن يثير مزابل النفاق التي تثقل صدره في وجوه المؤمنين، لعل وعسى أن تقوم حرب أهلية داخل المدينة.. يحقق من خلالها حلمه بطرد النبي ﷺ ومن معه من المهاجرين، لتعود الأصنام والجاهلية والخرافة، وتعود يثرب كما كانت فيتوج ابن سلول ملكاً عليها.

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٢٩٦.

(٢) صحيح مسلم ٤-١٩٩٨.

يقول جابر رضي الله عنه: «سمع ذاك رسول الله ﷺ فقال: ما بال دعوى جاهلية؟ قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار.

فقال: دعوها فإنها منتنة. فسمع بذلك عبد الله بن أبي فقال: فعلوها! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

فبلغ النبي ﷺ، فقام عمر فقال: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه.

وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة ثم إن المهاجرين كثروا بعد»[1]

فأغاضت كثرتهم صدور المنافقين، وتبنى زعيمهم مشروعاً لطردهم من المدينة، وهو لا يستطيع ذلك مهما فعل، فالدولة الإسلامية أقوى من أن تتأثر بقول منافق، لكن تلك الكلمات تستدعي عصبية مقيتة قد تستشري في المستقبل، وتفسد قلوب كثير من الناس، وتنحرف بنواياهم وجهودهم نحو زوايا ضيقة وحفر صغيرة جربها العرب آلاف السنوات قبل محمد ﷺ، فما تقدموا شبراً واحداً إلا نحو الثارات والمقابر.

وقد وصل هذا التهديد لمسامع النبي ﷺ فقدم لأصحابه، ولخلفائه، وللزعماء المسلمين من بعده درساً في التعامل مع أقوال الخصوم من رعاياهم.. مهما كانوا، فحطم عليه السلام أي حجة تبرر فيها السلطة التنكيل بمن تشاء، لمجرد أنهم قالوا كلاماً يصادم سياستها، أو يحتج على ممارسة من ممارساتها.

فها هي السلطة ممثلة بالنبي ﷺ تكذب مؤمناً وهي تعلم أنه صدوق، لأنه لم يقدم أدلة أو شهوداً على ما يقول.

وها هي السلطة ممثلة بالنبي ﷺ تبرىء رأس المنافقين، وهي تجزم بكفره ونفاقه وكذبه، وهو صاحب سوابق كما في حادثة الإفك.. لماذا؟ لأن الأصل في أي إنسان يعيش في الدولة الإسلامية أنه بريء حتى تثبت التهمة عليه.. حدث ذلك رغم أن

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٨٦١.

ذلك القول يحمل أشد أنواع الخروج على السلطة، بل يدعو صراحة إلى تغيير نظام الحكم بالقوة.

بل إن هذا المنافق لم يكتف بالتهديد فقط، بل قدم لأهل المدينة مشروعاً خطيراً جداً يأمرهم فيه بـ:

حصار المهاجرين اقتصادياً

فقال لمن حوله: «لا تنفقوا على من عند رسول الله ﷺ حتى ينفضوا من حوله»[1] وكان الذي سمع هذه المقولة من فم ذلك المنافق مباشرة صحابي جليل اسمه (زيد بن أرقم) وهو من الأنصار أنفسهم، ومن المعنيين مباشرة بكل حرف بصقه ابن سلول، فنقل ذلك للنبي ﷺ، لكن زيداً تأذى كثيراً بعد نقله لذلك القول، وذلك لأن النبي ﷺ لم يعره اهتماماً، فقد أراد قطع كل طرقات المنافقين في التسلل نحو وحدة المسلمين، بعد أن نجحوا في التسلل في صفوفهم.. تلك الوحدة التي بدأ المؤمنون بقطف ثمارها، وبدأت البشرية تتمتع بشمسها وهوائها.

يقول زيد رضي الله عنه وهو يتحدث عن معاناته: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر أصاب الناس في شدة [في غزوة تبوك]»[2] «كنت مع عمي فسمعت عبد الله بن أبي بن سلول يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، وقال أيضاً: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

فذكرت ذلك لعمي، فذكر عمي لرسول الله ﷺ.

فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا. فصدقهم رسول الله ﷺ وكذبني. فأصابني هم لم يصبني مثله»[3] لأن المتحدث صادق والحالف

---

(١) صحيح مسلم ٤-٢١٤٠.

(٢) صحيح مسلم ٤-٢١٤٠ وأما بين المعقوفين فعند الترمذي ٥-٤١٧ بسند صحيح حدثنا محمد بن بشار حدثنا بن أبي عدي أنبأنا شعبة عن الحكم بن عتيبة سمعت محمد بن كعب القرظي منذ أربعين سنة يحدث عن زيد بن أرقم. وشيخ الترمذي ثقة من رجال الشيخين التقريب ٤٦٩ وشيخه محمد بن إبراهيم بن أبي عدي وقد ينسب لجده ثقة التقريب ٤٦٥ والبقية أئمة ثقات معروفون أما ما جاء عن علاقة هذا القول بغزوة بني المصطلق فهو ضعيف وإن كان في صحيح مسلم، لأنه من بلاغات سفيان رحمه الله.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٨٥٩.

كاذب، والـكل يعرف الطرفين، وكان مما زاد حزن زيد ومعاناته ذلك العتاب القاسـي الـذي صدر من عمه وقومه، حيث يقول رضي الله عنه: «وقال عمي: ما أردت إلى أن كذبك النبي ﷺ ومقتك؟»[1]

انطوى زيد على آلامه وأحزانه، وأكمل مسيراً ثقيلاً إلى المدينة، فقد عكر المنافقون صفو غزوته وجهاده مع النبي ﷺ، وعكروا على المؤمنين ذلك أيضاً، وزاد همومه ابتهاج المنافقـين بتصديق النبي ﷺ لهم، فقد نجحوا فـي التملص من عواقب تلك الكلمات الخطيرة، لكن المنافقين لم يكتفوا بتلك النتيجة المفرحة، ولا بتلك البلبلة التي أثاروها، فقد خيل لهم أن هذا الجيش وقائده بلغوا من السذاجة درجة يمكن معها توجيه ضربة أخرى لهم، لكنها هذه المرة ستكون ضربة عسكرية. لقد قرر المنافقون:

محاولة اغتيال النبي ﷺ

«رجع رسول الله ﷺ قافلاً من تبوك إلى المدينة، حتى إذا كان ببعض الطريق مكر برسـول الله ﷺ ناس من أصحابه، فتآمروا عليـه أن يطرحوه في عقبة في الطريق، فلما بلغوا العقبة أرادوا أن يسـلكوها معه، فلما غشيهم رسول الله ﷺ أخبر خبرهم، فقال: من شاء منكم أن يأخذ بطن الوادي فإنه أوسع لكم.

وأخذ النبي ﷺ العقبة، وأخذ الناس بطن الوادي إلا النفر الذين مكروا برسـول الله ﷺ لما سمعوا بذلك، واستعدوا وتلثموا وقد هموا بأمر عظيم، وأمر رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر، فمشيا معه مشياً وأمر عمار أن يأخذ بزمام الناقة، وأمر حذيفة أن يسوقها.

فبينا هم يسيرون إذ سمعوا بالقوم من ورائهم قد غشوهم، فغضب رسول الله ﷺ وأمر حذيفة أن يردهم، وأبصر حذيفة غضب رسول الله ﷺ، فرجع ومعه محجن، فاستقبل وجوه رواحلهـم فضربها ضرباً بالمحجن، وأبصر القوم وهم متلثمـون، فرعبهم الله عز وجل حين أبصروا حذيفة، وظنوا أن مكرهم قد ظهر عليه، فأسرعوا حتى خالطوا الناس. وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله ﷺ، فلما أدركه قال: اضرب الراحلة يا حذيفة، وامش أنت يا عمار.

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٨٦١.

فأسرعوا حتى استوى بأعلاها، فخرجوا من العقبة ينتظرون الناس، فقال النبي ﷺ لحذيفة: هل عرفت يا حذيفة من هؤلاء الرهط أو الركب أو أحداً منهم؟ قال حذيفة: عرفت راحلة فلان وفلان. وقال: كانت ظلمة الليل، وغشيتهم وهم متلثمون.

فقال ﷺ: هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا؟ قالوا: لا والله يا رسول الله. قال: فإنهم مكروا ليسيروا معي، حتى إذا أظلمت في العقبة طرحوني منها.

قالوا: أفلا تأمر بهم يا رسول الله إذا جاءك الناس فتضرب أعناقهم؟ قال: أكره أن يتحدث الناس ويقولوا: إن محمداً قد وضع يده على أصحابه، فسماهم لهم، وقال: اكتماهم»[1]

مرة أخرى يقدم النبي ﷺ درساً في السلوك السلطوي الإسلامي الرائع في تعامله مع الآخر، وتتضح سعة الأفق والحكمة التي يتميز بها في تعامله مع الأحداث الخطيرة.. التي يمكن السيطرة عليها وتحجيمها وتجاوزها بهدوء وتعقل، ودون تعريض المجتمع والأمة إلى هزة مؤثرة.. رغم قول حذيفة رضي الله عنه في الموضع نفسه: «قال النبي ﷺ: في أصحابي اثنا عشر منافقاً، فيهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط، ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة»[2] وهي عبارة عن دمل كبيرة قاتلة.

تجاوز النبي ﷺ تلك الأزمة بنجاح، وقاد جيشه باقتدار، ولما أقبل الجيش على المدينة هش لها النبي ﷺ وطاب له الحديث عنها وعن أهلها، وهؤلاء الأوغاد أحقر من تشويه جمال طيبة الطيبة..

لهج عليه السلام بكلمات من القلب عندما اقترب منها فقال: «إني مسرع فمن شاء منكم فليسرع معي، ومن شاء فليمكث. فخرجنا حتى أشرفنا على المدينة فقال: هذه طابة، وهذا أحد، وهو جبل يحبنا ونحبه. ثم [قال رسول الله ﷺ: ألا أخبركم بخير دور الأنصار قالوا: بلى يا رسول الله] قال: إن خير دور الأنصار دار بني النجار،

---

(١) حديث حسن رواه البيهقي في الدلائل ٥-٢٥٦ عن عروة مرسلاً ورواه من طريق ابن إسحاق عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن حذيفة. وهو قوي لولا عنعنة ابن إسحاق وتابعه عند البزار ٧-٣٥٠ أبو بكر بن عياش عن الأعمش وله شاهد عند أحمد ٥-٤٥٣ من طريق يزيد أنا الوليد يعني بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل.

(٢) صحيح مسلم ٤-٢١٤٣.

ثم دار بني عبد الأشهل، ثم دار بني عبد الحارث بن الخزرج، ثم دار بني ساعدة، وفي كل دور الأنصار خير.

فلحقنا سعد بن عبادة فقال أبو أسيد: ألم تر أن رسول الله ﷺ خير دور الأنصار فجعلنا آخراً، فأدرك سعد رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، خيرت دور الأنصار فجعلتنا أخراً.

فقال: أوليس بحسبكم أن تكونوا من الخيار، [ثم قال بيده فقبض أصابعه، ثم بسطهن كالرامي بيده، ثم قال: وفي كل دور الأنصار خير]»[1]

ثم بشر الفقراء والمعذورين داخل المدينة بحديث يرويه أنس بن مالك كالماء البارد في هذا الصيف الحار، فيقول: «إن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة، فقال: إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم. قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟! قال: وهم بالمدينة، حبسهم العذر»[2]

بشر عليه السلام أهل الأعذار من أصحابه، وكأنه يعبر عن شوقه لهم ولمدينته، وكان شوقه عليه السلام للمدينة يعرف بحركة تفيض بالمشاعر.. حركة يقول عنها «أنس رضي الله عنه: إن النبي ﷺ كان إذا قدم من سفر فنظر إلى جدران المدينة أوضع راحلته، وإن كان على دابة حركها من حبها»[3] ومن يلومه عليه السلام على حبه للمدينة وأهلها..

هاقد تحرك قلبه قبله، وتحرك جيشه من خلفه حتى أقبلوا على مشارفها.. تحركت القلوب الحزينة من كلمات عبد الله بن أبي بن سلول الشنيعة، أما داخل المدينة فالمشاعر مختلفة كاختلاف الألوان.. هناك المشتاقون لرسول الله ﷺ، وهناك المنافقون الذين انتهوا من إعداد ملفات أسفهم وأعذارهم الملفقة، ليقدموها كالأفخاخ للنبي عليه السلام، وهناك عصافير المدينة وأطيارها..

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٧٨٥ والزيادة للبخاري ٥-٢٠٣١.
(٢) صحيح البخاري ٤-١٦١٠.
(٣) صحيح البخاري ٢-٦٦٦.